الباب الخامس عشر

التربية الخلقيـــة

النمو الخلقى ومعنـــاه . الإرادة وتربيتهـــا
العـــادات وأهميتهـا . الانفعالات والعواطف
المثـــل العليـــا . الشـــعور الدينى

معنى النمو الخلقى وأهميته

إن ثمرة التربية الصحيحة نمو الطفل نموا متوافقا فى جميع قواه الفردية ، ويشمل ذلك نمو الجسم والعقل والخلق .

فالمرء لا يستطيع أن يعيش صالحا أوسعيداً ما لم تتوافر له صحة البدن ؛ ولا يكون عقله سديداً وقديراً على تدبير شئونه وحسن تصريفها ما لم يكن جسمه سليما ؛ ولا يمكن أن يشب على خلق حميد يجلب به الخير لنفسه ولغيره ويدفع به الشر إلا بالحياة الصحية والتفكير القويم .

فالنمو الخلقى يتكون ويزدهر بمساعدة النمو الجسمى والنمو العقلى ، ويزداد تحت ظلالهما ، وبه يصير الطفل فى معترك الحياة قوة تسعى فى دماثة لينة ، وحرية وسيعة غير هيابة ما يعترضها فى سبيل الأعمال الصالحة ؛ وبه النجاح بعينه فى الدنيا ، والاستبشار بالنصر دائما . فقيمة المرء فى الحياة تقدر بما يصل إليه من رقى النفس وكمالها واتصافها بالحكمة والعفة والعزة والعدل ، وبما يتغلغل فى نفسه من بواعث العمل لصالح الفرد والمجتمع ، ومقدار استعداده لنبذ الشر ، وتجنب الإساءة إلى غيره من الناس .

فالأخلاق الدمثة هى المقياس للتربية الرشيدة .

وأما طريق نموها فآخذ فى الظهور بوضوح فى مبادئ التربية الحديثة . وقد أصبحت تربية الأخلاق مرتبطة بالتربية الاجتماعية إلى حد بعيد .

فالأخلاق تتكون فى كل ناحية من نواحى حياة الطفل الصغير بطريقة غير مباشرة . ولا يمكننا أن نعلمها أطفالنا فى دروس خاصة مقصودة ، أو نبثها فيهم طفرة واحدة ؛ بل هى تأتى نتيجة للروح المعنوى السائد فى المجتمع الذى يحيط بهم . فالطفل يتنبه إلى وجوب اجتياز مسالك الحياة بصفته

عضواً فى الجماعة ، فيوازن فى مختلف علاقاته بأفراد أسرته ورفاقه ، بين صوالحه وصوالحهم ، ويتحتم عليه أن يعرف أسباب الخير له ، ثم ليقابل بينها وبين أسباب الخير لهم ، ويراعى ما ينفعه أو يضره وما ينفعهم أو يضرهم . وهكذا يتدرج إلى أطوار الحياة قادراً على الاندماج مع غيره من الأفراد بثقة متبادلة ، وسمو فى المعاملة ، فيقدر مسئوليته العظيمة تجاه المجتمع الذى نشأ فيه .

ولقد كانت مظاهر التربية الخلقية قديماً أن يراعى الطفل آداب المعاشرة والمجاملات المعتادة ، وأن يلتزم الصمت والسكون فى حضرة غيره ، ويطيع الأوامر ، وينفذ الواجبات التى تفرض عليه بدون توان أو مناقشة . ولكن قواعد السلوك الخارجى هذه ، ولو أنها قد تكون دليل الأخلاق ومظهرها ، فإنها لم تعد مهمة فى حد ذاتها . وأصبح الخلق يرتكن على البواعث الداخلية التى تدفع الطفل إلى الأعمال الطيبة أو السيئة . لذلك وجب على المربى أن يستقصى حالة الطفل النفسية التى تصدر عنها تلك الأعمال ويتخذها معياراً لخلقه .

فالخلق صورة النفس وصفة راسخة فيها ، تنبعث عنها الأعمال بواعز وجدانى ونزعة فطرية من غير تفكر أو تردد . ولا تعتبر أعمال الإنسان خلقية إلا إذا كانت تدخلها الإرادة منبعثة بدون رادع من الخوف أو غرض فى الشهرة والظهور .

والعناية بالتربية الخلقية تشمل ما يأتى : —

(١) تعديل الغرائز والميول الفطرية وتهذيبها ومعالجة النزعات المختلفة وأنواع الاستعدادات المتباينة ، ورفعها من الحد الضار غير المهذب إلى الشعور السامى والنزوع الأدبى . فعمل الإنسان دليل على خلقه . وترجع معظم أعمال الإنسان إلى غرائزه وميوله الطبيعيه ، ولذا فخلقه يتوقف كثيراً عليها .

فالخوف مثلا يمكن توجيهه إلى التروى ومخافة الله بدلا من تركه بذرة للجبن والتقهقر أمام العقبات . وغريزة حب الظهور يمكن أن تذكى فى الطفل تمجيد الأعمال الجليلة والمبادىء الخلقية الصحيحة ، ومقت الأعمال الباطلة بدلا من الخيلاء والزهو الباطل . والمقاتلة قد تصير قوة للجهاد الأدبى ، والدفاع عن حقوق الغير ، والانتصار للضعيف بدلا من حب الانتقام وجلب الأذى . وغريزة الانقياد قد تكون أساساً للخشوع الدينى والخضوع لذوى النفوذ والقانون العادل ، وقد تكون سبباً لضعف الشخصية وعدم المغامرة فى سبيل الخير .

ومن هنا يبدأ واجب المربى فى تنظيم الانفعالات النفسية ، وتحويلها إلى عواطف راقية ، وقيادة تلك العواطف فى سبيل الخير .

(٢) تقوية الإرادة وتوثيق دعامتها فى الطفل حتى يستطيع ضبط النفس والتحكم فى مشاعره ، والإذعان لوحى الحق ، وشحذ همته فى الصبر والمثابرة والثبات والمواظبة على وزن الأمور والحكم عليها واختيار الصالح منها اختيارا حرا .

(٣) إعداد الطفل للعمل الطيب بالتدريب الفعلى ، وتكوين العادات الحسنة فى السنين الأولى من حياته .

(٤) وضع القدوة الحسنة فى مراعاة أصول النظام والنشاط وتأدية الواجب وضرب أحسن الأمثال العملية للإخلاص والأمانة والصدق وغيرها من الصفات الفاضلة التى يكسبها الطفل عن طريق اقتدائه بالمثل العليا لقواعد السلوك الخلقى ؛ فنجب إلى الطفل اتخاذ أبطال من ذويه ومربيه ومن المصلحين ورجال الدين والأدب ليكونوا مشكاة له فى تمثيل الحياة الصالحة فيحتذيهم مقياساً له فى أعماله وتصرفاته .

(٥) تنمية الشعور الدينى لأن الدين يدعم الأخلاق العميقة الأثر

فى نفس المرء . وكل تربية على غير أسس دينية لابد أن ينهار بناؤها وتتقوض دعائمها ؛ ومن ربى طفله على مبادىء غير دينية كان عمله هدما وتخريبا .

هذه إذن خير الوسائل للنمو الخلقى — أما الطريقة الشكلية لبث دروس الأخلاق كالعظة والإرشاد والنصح وتلقين الحكم والأقوال الذهبية وتحفيظ القوانين وتوقيع العقاب والتخويف والتأنيب ، فطرق ثقيلة على نفس الطفل لأنها تشعره بالتحكم والإلزام . وربما أدت الى السلوك الصحيح ولكنه يكون ناشئا عن خوف ورهبة لا عن عطف ورغبة .

أما الطرق غير المباشرة فإنها أفعل فى النفس وأدعى إلى اتباعها بدراية عملية ، وأقوى فعلا فى استهواء الطفل الصغير إلى الخير ، وإيحاء روح الفضيلة فى خفيته ، وتكوين مبادئه ومعتقداته تكوينا متينا يظهر أثره بين ثنايا أعماله ، ويبعده عن عوامل الرذيلة وعن التعثر فى الخطأ .

الإرادة

الإرادة مظهر من مظاهر النزوع . والنزوع هو الدافع النفسانى الذى يدفع الشخص لأداء عمل من الأعمال . أو هو ذلك العمل نفسه إن قام به الإنسان فعلا .

فإذا كان هذا الدافع موروثاً وعاماً عند جميع أفراد النوع ، كان مظهراً لأحد الميول الفطرية .

وإذا كان مكتسبا شبه آلى كان مظهراً لإحدى العادات .

وأما إذا كان الدافع نتيجة التفكير سمى إرادة . وهى كما عرفها العلامة مكدوجل « العقل فى حالته العملية » ، فهى الدافع الذى يدفع الفرد لأداء عمل من الأعمال بعد تفكير وروية .

تحليل العمل الإرادى :

إذا حللنا العمل الإرادى ، وجدنا أنه لابد وأن يكون مسبوقا برغبات وميول متضاربة ، يتغلب إحداها على الأخرى بعد التفكير والروية فمثلا عند قراءة رواية مسلية تتنازعك عدة ميول :

(١) الاستمرار فيها إلى النهاية

(٢) تركها لأداء واجبك المدرسى ، أو لزيارة قريب أو لقضاء حاجة ما . وينتهى بك الأمر بتفضيل أحد هذه الميول وتنفيذه فعلا . ولا يتأتى ذلك إلا بالتفكير والموازنة . وهذا معناه أن شعورك بالواجب عليك يدفعك إلى التفكير فى الأمر والموازنة بين الميول والرغبات المتعددة

فى نفسك لتنتقى منهـا ما هو أفضل وأرجح . وهنا تصمم على تنفيذه ، ثم تنفذه بالفعل .

وعلى هذا الأساس نجد أن العمل الإرادى يتركب من : —

١ — شعور وجدانى .

٢ — رغبات أو ميول .

٣ — تفضيل أو ترجيح أحد هذه الميول .

٤ — عزم أو تصميم عليه .

٥ — تنفيذه بالفعل .

منشأ الإرادة فى الطفل :

نرى أن الوليد لا تظهر عليه أمارات الإرادة أو النزوع الذاتى نحو عمل من الأعمال . فإذا ما كبر وأخذت مداركه العقلية فى النمو ، بدأت نزعاته الذاتية فى الظهور بالتدريج ، وشرع يقوم فعلا بأعمال وحركات عضلية ترمى إلى أغراض ظاهرة ، كالبحث عن ثدى أمه ، أو الحبو نحوها ، أو النظر إلى لعبته الجذابة ، أو غير ذلك .

وبما أن الحركات الإرادية لا بد أن يسبقها تفكير ، فهى إذن لا تصدر عن الطفل إلا بعد أن تستطيع حواسه القيام بوظائفها ، ويقوى فيه الإدراك الحسى ، وتنمو قواه العقلية ، وتتكون لديه أفكار يعمل على تنفيذها بحركات إرادية .

فقوة الحواس على الإدراك ، ونمو القوى العقلية شرطان أساسيان لنمو الإرادة . كذلك للأفكار التى تصل إلى الطفل شأن عظيم فى نموها ؛ إذ ترى الطفل يحول الفكرة إلى عمل يقبل عليـــه بنفسه إذا ما جلب له الفرح والسرور ، وينكمش عنه إذا ما كان مؤلما .

والطفل يميل إلى التقليد بفطرته كما سبق القول . وكثيرا ما نراه يقلد الإنسان أو الحيوان بدافع إرادى . فرغبته فى محاكاتنا فى أقوالنا وأعمالنا مظهر من مظاهر الإرادة .

نستخلص من هذا أن حركات الطفل لا تكون إرادية إلا إذا تدخلت رغبته فى القيام بتلك الحركات . أما إذا رأى الطفل جسما براقا مثلا ، أو لونا جذابا فتوجه تلقاءه مباشرة ، لم يكن ذلك عملا إراديا . ولكن اذا اتجهت نفسه إلى الغذاء عند رؤية الطعام ، ومد يده إلى نوع خاص منه ، كان ذلك عملا إراديا من غير شك ، لأن الطفل فى هذه الحالة يشبع رغبته ، ويسد رمقه بإرادة منه .

أما فى الحالة الأولى فالجسم البراق أو اللون الزاهى ، هو الذى جذب انتباهه فاندفع إليه مباشرة قسرا ومن غير تفكير .

مميزات الإرادة عند الأطفال

إذا لاحظنا أعمال الأطفال الإرادية ، وجدناها تختلف عن مثيلاتها فى الكبار . فهى قليلة متقطعة . وذلك لأن الطفل لايزال بعد فى دور النمو ، وفى حاجة إلى التربية والتهذيب . وأهم الأسباب التى من أجلها كانت إرادة الطفل ضعيفة ما يأتى :

١ — إن الطفل يندفع إلى العمل بدافع الرغبة الوقتية والميل الشخصى . وهذا راجع إلى أنه يتأثر بوجدانه أكثر مما يخضع لفكره ورويته . فنراه لرغبته الشديدة فى الحصول على شىء ما ، يلقى بنفسه إلى التهلكة من غير تبصر فى عواقب الأمور .

٢ — يدفع الطفل نشاطه الذاتى وحبه للاستطلاع إلى الانتقال من عمل إلى آخر قبل أن يتمه . فنراه يعنى بهذا الأمر ، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى ذاك . ومثله فى ذلك كمثل النحلة التى تنتقل من زهرة إلى زهرة طلبا فى ارتشاف

رحيقها فالطفل ميّال بطبيعته إلى كل جديد ، وإلى ما يتطلب النشاط والحركة .

٣ — إن الطفل يشعر بالتعب بسرعة لأقل مجهود يبذله ، كما تنقصه المثابرة فى مزاولة الأعمال والالتفات إليها مدة طويلة .

درجة الإرادة

قد تكون الإرادة قوية وقد تكون ضعيفة .

فالشخص قوى الإرادة هو من يقدم على الأعمال بعزيمة ثابتة ومن غير تردد ، ويستمر فى عمله إلى أن ينال مأربه . وإن قامت الصعاب فى طريقه فإنه يواجهها بصدر رحب ، ويزداد فى اقتحامها قوة على قوة إلى أن ينال غرضه .

مظاهر قوة الإرادة

إن قوة الإرادة فضيلة من الفضائل التى لا تثبت فى النفس إلا بمراعاة شروط تكوين العادة . فهى إذن من الأمور المكتسبة التى يحصل عليها المرء بالتجارب والتعود . ومن مظاهرها ما يأتى :

١ — الإقدام : فقوى الإرادة هو الذى يقدم على العمل بعزيمة ثابتة .

٢ — ضبط النفس وهو مظهر من مظاهر قوة الإرادة . فسيّر المرء وراء نزواته ، وعجزه عن كبح جماح نفسه ، راجع إلى عدم مقدرته على ضبطها .

٣ — مضاعفة القوى وبذل الجهد فى تقوية الدوافع المستحسنة وإخماد الدوافع المرذولة .

٤ — الاستمرار فى العمل حتى يصل المرء إلى الغاية المنشودة على الرغم من العراقيل التى تصادفه .

والواجب علينا تقوية الإرادة فى الأطفال بأن نكون لهم مثلا عليا فى قوة العزيمة وضبط النفس ، وأن نزودهم بالأفكار التى تحملهم على العمل

مراعين فى ذلك مقدرتهم الجسمية والعقلية. لأننا إذا أعطينا الطفل عملا فوق طاقته فقد لا يتمكن من إتمامه. وربما دعا ذلك إلى تثبيط همته وقتل عزيمته، إذ يشعر أنه عاجز عن القيام بمثل ذلك العمل. كما يجب أن تكون الأعمال التى يكلف الطفل بها مرتبطة بميوله ورغباته ليقبل عليها بدافع شخصى. وكذلك يجب أن يشجع على العمل من آن لآخر ليتجدد نشاطه ويحتمل الاستمرار فى العمل المكلف به حتى يتمه على خير الوجوه.

ضعف الإرادة وعلاجه :

يظهر ضعف الإرادة فى تردد المرء فى أعماله وهذا لقلة ثقته بنفسه، وعدم مقدرته على ضبطها، ولوهن عزيمته وعجزه عن كبح جماح أهوائه.

وعلى المربى دراسة نقط ضعف الإرادة فيمن يعهد إليه أمر تربيتهم كى يقضى عليها أو يعالجها علاجا ناجعا باتباع الوسائل الآتية : —

١ — لما كان تردد الطفل فى أموره وأفعاله راجعا إلى عدم ثقته بنفسه وعجزه عن الاعتماد عليها، كان واجبا على المربى أن يعوده أولا الإقدام على الأمور السهلة التى يكون فى مقدوره القيام بها، والوصول إلى نتيجة سريعة مرضية ثم ينتقل به إلى غيرها مع مراعاة التدرج فيها حتى يمكنه فيما بعد أن يقدم على أصعب الأمور من غير تردد أو وجل.

٢ — يجب أن يثير فى الطفل الرغبة الصادقة فى العمل الذى يكلف بأدائه.

٣ — يجب أن يزود الأطفال بالأفكار الصالحة التى تحملهم على العمل.

٤ — يجب أن يكون الغرض الذى يرمى إليه الطفل من الأعمال التى يناط به تأديتها صريحا واضحا، إذ بدون ذلك يتخبط فيها الطفل خبط عشواء. فلا عزيمة تدفعه، ولا قوة تسنده.

٥ — قد يكون ضعف الإرادة فى الطفل ناشئا عن خوفه من الاستهزاء به بسبب تأخره عن زملائه . فيجب والحالة هذه أن نزيل أسباب خوفه وأن نشجعه التشجيع الكافى ليقبل على العمل من تلقاء نفسه .

٦ — يجب أن نغرس فى أطفالنا فضيلة ضبط النفس لما لها من الأثر العظيم فى تقوية الإرادة .

٧ — يجب أن نستهوى الطفل إلى حسن الظن بمقدرته والوثوق بنفسه . فهذا يساعد على تقوية إرادته .

بهذه الوسائل نستطيع أن ننتقل بالطفل من عالم التردد إلى عالم الاقدام والعزيمة الصادقة .

المثل الأعلى

إن القدوة الحسنة من أهم العوامل التى تبث الأخلاق الصالحة فى الأطفال، لأنها توضح لهم بطريقة فعلية روح الخير، وتمثل لهم معنى الحياة السامية.

فالتهذيب بوساطة المثل الصالح يأتى عن طريق الخبرة. وتنتقل الأخلاق مجسمة فى مجراها الفعلى فتدعو نشـــاط الأطفال إلى التقاطها واقتباسها بالمحاكاة.

والطفل عندما يبلغ شأوا من النمو، يوجه غايته إلى محاكاة أفراد ممن يعاشرونه فى بيئته، ويتأثر بأعمال من يعجب بهم من الأشخاص الذين تدور حولهم القصص التى تلقى عليه. فيتجه مسلكه نحوهم، ويتخذهم أنموذجا لنفسه يسعى لإرضائهم والعمل على ضوء مبادئهم وأفكارهم.

والمُثُل التى تمثل أمام الطفل تتبدل دلالتها فى أطوار نموه المختلفة حسب تغير وجهة نظره إلى الحياة وتحور ظروفه، وتبعا لعلاقاته التى يكونها مع الناس حتى سن المراهقة حين تتحدد غايته من العيش، فيدأب على تحقيق ماتصبو إليه نفسه.

والإنسان دائما يطمح إلى الكمال؛ والبشرية بأجمعها أبدا تنشد السمو: والمثل الأعلى ماثل على الدوام نصب عين المجتمع، يضىء له سبل الرقى فيجد للوصول إلى أعلى مستواه.

عوامل تكوين المثل العليا للأطفال

طالما كان المثل الذى نضعه أمام الطفل طيبا كان السلوك الذى يوحيه

طيبا أيضا ، وكانت الأخلاق المبنية عليه قويمة . ولقد يسىء الطفل اختيار أبطاله فينتقيهم من بين أصحاب الجاه أو الشهرة الباطلة ، أو ممن لا يوافقون ظروفه الخاصة وشخصيته ، فينحرف عن حذو الصواب ، وتسوء أخلاقه بمحاكاتهم . لهذا فالعناية واجبة بإحاطة الطفل بالنماذج المثلى لقواعد السلوك ، ومراقبة ما يقع تحت بصره من الأعمال والأفعال .

ولكى نقوده إلى المثل السوى فى الحياة العامة يجب مراعاة ما يأتى :

١) اتصاف كل من يحيطون به من ذويه ورفاقه ومربيه بالسجايا الفاضلة التى نود أن يتمثل بها وأن يحاكيها فى حركاته وسكناته وأفعاله المختلفة حتى يكون لها الأثر التهذيبى المطلوب .

٢) تصوير أبطال من عالم الحقيقة أو خلق الخيال ومن أمثل رجال العصر البارزين أو أشخاص التاريخ والإصلاح والاستكشاف والأدب ، وتحبيب الطفل فيهم وإثارة اهتمامه بهم واحترامه لهم ، فيتخذهم مصدراً لإلهام الخير ووحى الفضيلة . وأكثر ما يؤثر فى الصبية الصغار مثل البسالة والبطولة والشهامة ؛ أما البنات فيعتبرن بالشخصيات التى تشمل عناصر جمال الروح والهدوء والشفقة والتدين وخدمة الغير وعذوبة الطبع وعطف الأمومة .

ولكى تنجلى المثل العليا للطفل أكثر فأكثر ، ويتسع أفقه الأدبى كلما ارتقى فى النمو وازداد فهمه ، يجب تنظيم المؤلفات التى نقرؤها عليه ، أو نهيؤها له ليطالعها بنفسه إذا ما تعلم القراءة ، من كتب ومجلات دورية وصحائف منوعة ، فيها القصص والأساطير والتراجم وسير قادة البشر بحيث تكون فى مستوى تفكيره ، وموضحة بأسلوب طريف يستهويه إلى تتبعها بشغف ، وإلى محاكاة طرق جهاد هؤلاء الأبطال فى سبيل الفضيلة ، وتغلبهم على القسوة والظلم ، وخطتهم فى إصلاح الشر الذى بينهم .

نشأة الشعور الديني وأثره

لا يمكن أن ينجح الإنسان حقا فى دنياه إلا إذا كان لأخلاقه عماد من الشعور الدينى . والدين لا يظفر به المرء بعقله ، وإنما يظفر به بوجدانه ونية قلبه . فالوازع الدينى يستيقظ فى طوية النفس ، وعنه تنبعث عقيدة الفرد وإيمانه بالخالق عز وجل . وهذه العقيدة وذلك الإيمان يبقيان فى الحياة شعلة من النور لهداية صاحبهما إلى السلوك بأسلوب لا نهاية لتساميه .

وطفلنا الصغير ، يولد فى هذا العالم وبنفسه البريئة بذرة الخير الأصلية التى يشع منها ضوء من الروحانية والحساسية بأسرار الوجود وبقوة الله العليا التى تتراءى فى الكون والتى تسجلها شواهد الطبيعة ومعالمها المختلفة . فهو كثيرا مايحيرنا بأسئلته العميقة عمن صنع العالم وأبدع الإنسان والحيوان؟ وأين هو ذلك البارىء العظيم ؟ ولماذا لا نراه بيننا ؟ وما بدء هذه الحياة ؟ ولماذا خلق الله تعالى الشيطان الردىء ؟ وكيف أتت الناس إلى هذه الدنيا ؟ وإلى أين يذهبون بعد الموت ؟ وما إلى ذلك من الاسئلة العويصة التى دعت بعض الباحثين إلى تلقيبه بالفيلسوف الصغير .

وفى مرحلة الطفولة الأولى نجد الصغير مستعدا لقبول معتقداتنا فى قالب مناسب مداركه الأولية . فهو يتناول تفسيراتنا وردودنا عن أسئلته هذه بإيمان وتسليم تام ، دون أن يفهم ما تنطوى عليه أسرارها من حكمة جزيلة ، وإن هذا ليغذى شعوره ويجلى فيه البصيرة الدينية . وهو يخضع لآرائنا بدافع من غريزتى الانقياد والخوف ، وبعامل من الاستهواء والإيحاء ، ولاسيما أنه قليل الخبرة بالحياة يثق بحسن معرفتنا بالأمور ، ويعترف بتفوقنا عليه ، ويدرك أن مقدرة الله تعالى فوق مقدرة البشر ، وتتجاوز حد الخليقة بأجمعها ، فيخضع لها بإجلال وهيبة وخشوع .

وبنموّ عقل الطفل وتدرجه إلى سن المراهقة تقوى فيه نزعة التدين فيصبح ورعه ثابتا بالتعليل والتعقل ، ومحصنا بالتمييز والتمحيص . وتقوم عقيدته على أساس مستحكم من الإدراك الكلى لقواعد الدين الحنيف وفروضه القويمة . وهذا طور انقلاب خطير فى حياة الناشىء ؛ فإن لم نتناوله بالعناية الشديدة ، ونحصنه بسلامة التفكير والإقناع ، فقد ينساق من كثرة البحث والنقد ، إلى هوة من الإبهام والشك والكفر لا سمح الله .

ونشأة الشعور الدينى تأتى بتأثير القواعد والتعاليم التى فرضتها الكتب المنزلة كمبادىء للحياة الإنسانية العامة . فهذه تبث فى الأطفال محبة الله والإيمان به تعالى ، وتريهم سناء قدرته وسمو حكمته فى تشريع الأوامر التى أمرنا باتباعها والنواهى التى أمرنا باجتنابها .

ففى الامتثال لقول الصدق مثلا يكون الفوز فى الحياة . ولذا أمرنا الله تعالى أن نحكم الحق على جميع أعمالنا مهما كلفنا ذلك .

وتعليم القرآن الكريم ودراسة الكتب السماوية يجب أن يكونا فى بادىء الأمر عن طريق القصص التى تتضمن سير الأنبياء والمصلحين ورسالاتهم التى بعثوا بها إلى أقوامهم المختلفة .

وبما أن الطفل فى هذه السن قوى التخيل ، كثير النشاط ، شديد الاستهواء ، ميّال إلى المحاكاة ، فيجب أن نهيء له القدوة الطيبة فى جميع حركاتنا وسكناتنا وأقوالنا وأفعالنا حتى نوحى له التقوى فى أثناء قيامنا بالصلاة وإيتاء الزكاة والبر بالغير ، وحتى نوحى له الخشوع والروعة فى ذكر كل ما لله عز وجل .

كذلك ينبغى إجابة الطفل عن أسئلته المتعددة بطريقة تناسب عقله وتبين له حكمة الخالق جل وعلا فى جبلة خليقته وسن شرائعه ونواميسه مع البشر .

ومن الحزم ألا نماطله ، ولا نحاول إخفاء الحقائق أو إفساد تفكيره عليه. فإذا سأل مثلا « من أين أو كيف جاء أخى الوليد ؟ » لا نضلله بإقناعه أن الطبيب أحضره فى حقيبته ، أو أنه وجد ذات صباح فى الحديقة تحت شجيرات الورد ، بل يحسن إفادته بصراحة أن الله تعالى بعثه إلينا كما أرسل أمه وأباه من قبل، وكما أنه ينبت النبات لنتغذى بثماره ، ويخلق القطيطات لتسلينا بلعبها ، فهو أيضا قد شاء أن يهدى إليه أخاه الجديد ليكون رفيقه فى الحياة .

وإذا شاء الطفل أن يعرف أين كان أخوه المولود قبل خروجه إلى العالم فلنحدثه عن المحبة الوالدية ولنشرح له أن الأم تتعهد أبناءها وتحميهم من الأذى لشدة حبها إياهم ، وأنه من فرط حرصها على أخيه المولود وهو صغير جداً فى بدء تكوينه ، كانت تحمله بالقرب من قلبها محفوظا من كل ضرر .

وقد ينزعج الطفل لموت أحد معارفه ، ويكرر أسئلته المتوالية عن « أين ذهب ؟ » وهنا يحسن أن نذكره بلذة النوم وما يشعر به من راحة عند ما ينهض فى الصباح . فالله لفائق رحمته بالمتعبين والعجزة والمرضى يرقدهم فى ثبات عميق يستيقظون من بعده فى عالم آخر منتعشين ومعافين .

ولكى نقرب إلى ذهن الطفل قدرة الله على كل شىء ، وكلية وجوده فى كل مكان ، فلنصرفه إلى الطبيعة ليمرح فيها ، ويتأمل ظواهرها فتكشف له أثر البارىء فى بدائعها ، وتتعالى بخياله إلى تصور وحدة جلالته الشاملة لجميع المخلوقات .

وما المحرك للأفعال العجيبة البادية أمام ناظريه إلا يد الله المحجوبة عن عينيه وراء كل شىء . فبقدرة الخالق تهب الرياح وتتفتح البراعم وتسطع النجوم ويرخى الظلام سدوله وينبثق الفجر ؛ فهو رب المشرقين ورب المغربين ، مسجى الليل والنهار ، ووازن المواقيت ، وصانع الأنعام والإنسان فى أحسن تقويم .

وعند قيام الطفل ببعض أعمال الزرع والإنبات ، يدرك مبلغ ضعف البشر إزاء قوة الله تعالى ، فبمحض إرادته ينبت الحب بعد بذره ، ويخرج لنا من بطون الأرض شهى الثمار وجميل الأزهار وحدائق غلبا .

يشاهد الطفل كل هذا فيزيد تقديره لعناية الرحمن وعزيز قدرته ، ويهتز أمام عظمته الإلهية إعجابا وروعة ، ويتحدث بما زين به لنا الحياة الدنيا من مسرة وسماح ، ويندفع إلى حمده سبحانه وتعالى على ما نتمتع به من فضل نعمته ؛ ومن ثم تنشأ فيه الرغبة لإقامة الصلاة ، ويتسع قلبه للعطف على قاطبة الخلائق ، فيجانب الإساءة ، وينبذ كل فكرة لاخير فيها لإنسان . وعلى هذا المبنى الصالح يكون الشعور الدينى النزيه الذى ينتهى به المسير فى الحياة إلى الخير الأبقى .

العادات وأهميتها

كيفية تكوين العادات أو التخلص منها

إن السنوات الأولى من حياة الطفل أهم وقت لتعويده مختلف العادات وغرس الصفات الخلقية الحميدة فيه . وذلك لأن قابليته للتعلم تكون على أشدها فى هذه المرحلة ففى سن الطفولة يكون الجهاز العصبى مرنا وذا استعداد للتأثر السريع بجميع المؤثرات التى تصل إليه . وكل عمل أو شعور أو تفكير يأتى به فى هذا الطور من حياته يترك أثراً باقياً فى المادة العصبية ، وبتكرار هذا العمل أو الفكر أو الشعور الواحد ترسخ آثاره فى المخ وتتعمق فيه ، فيصبح عادة يؤديها بسهولة وبدون تفكر أو عناء . وهكذا يدخر من قوة مجهوده ومن زمن حياته ما يستطيع أن يصرفه فى نواحى الترقى الأخرى .

ومن العادات الأولى التى يكونها الإنسان فى طفولته ما كان خاصاً بآداب الأكل والشرب والنوم وأوضاع الجسم وأسلوب المحادثة والتحية والمجاملات العامة والاعتماد على النفس فى تأدية لوازمه الشخصية والمواظبة على النظافة وعناية الهندام والمحافظة على المواعيد وما إلى ذلك من العادات الصحية والأدبية الأخرى .

والطفل فى بادئ نموه يستقبل طول وقته آثارا مختلفة تطبعها فى نفسه بيئته التى يشب فيها . وهذه الآثار سواء أكانت صالحة أم طالحة لابد أن تترك وراءها أثرا فى نفسه فتكون عادات حسنة أو سيئة تبعا لنوعها . فهو يتخلق بالرغم منا ومن نفسه بتلك العادات وليس فى وسع المربى دفع هذا التخلق الذى يعرضه إليه الاستعداد الفطرى ، وإنما فى مقدوره أن يوجه هذا الاستعداد إلى الناحية النافعة ، ويجنبه عن الناحية الضارة ؛ فيراقب الطفل

مراقبة شديدة لشغل أوقاته بأعمال طيبة ، وتزويده بافكار صالحة لتكوين العادات الحميدة المرغوب فيها .

يتبين لنا إذاً أن تكوين العادة ما هو إلا نتيجة عاملين جوهريين هما الأثر والتكرار ، فكلما كان الأثر الذى ينطبع فى نفس الطفل لعمل ما سارا رغب الطفل فى تكراره . وبهذا التكرار يكون التمرين المستمر الذى يثبت العادة فى نفسه ، فيؤديها على نمط خاص ونظام واحد . ولذا فإننا لا ننجح فى غرس العادات الفضلى فى صغارنا إلا إذا عاملناهم بالرفق والود والتفاهم . وأحجمنا عن التخويف والتهديد والإيذاء الذى يلجئهم إلى الكذب والمخاتلة وغيرهما من الرذائل . كذلك كلما كان أثر الفعل موافقا لميول الطفل وطبائعه زاد مجهوده فى تجريبه حتى يتقنه ، إذ هو يعيد كرته باغتباط ، ويوالى محاولته المرة بعد الأخرى بدون ملل . ومن هنا نشأت علاقة العادات بالغرائز حيث ينشأ كثير منها على أساس أعمال الطفل الغريزية ونزعاته الفطرية . فالعمل الغريزى إذا تكرر بطريقة معينة يتخذ أثرا خاصا فى المخ ، ويتأصل فى الطفل فيصبح عادة وسجية منظمة كالشجاعة أساسها الخوف والمقاتلة ، وكالتعاون أساسه الميل الإنسى وحب الاجتماع ، وكذلك السرقة فإنها ناشئة عن حب التملك والادخار .

ولما كانت العادات فى الأفراد تختلف لتنوع الآثار التى تحدثها ، وجب أن تكون الأعمال التى نقصد تعويد أطفالنا إياها ذات بواعث توافق ميولهم حتى يحققوها بسرور ، ويجدوا لذة فى بذل المجهود للإتيان بها والتدريب عليها . وعلى قدر التدريب والتكرار تكون العادة راسخة فى المرء ومسيطرة عليه .

فلتعويدهم الطاعة والدقة والمثابرة مثلا ، علينا أن نشق أمامهم الطريق بالبواعث السارة التى تجذب ميولهم الشخصية ، فتدفعهم إلى الانقياد إلينا على

الفور بحرية ورغبة ، كأن نعطيهم واجبات فى تنظيم أدواتهم ، ومسئوليات فى المحافظة على إخوتهم الصغار ومساعدتهم وتعهدهم ، لنشعرهم بموقف القيادة ونثير فيهم حب التعاون فيؤدوا كل هذا بحزم وبدقة . وهكذا كلما تقدموا فى النمو وازدادت قواهم العملية أمكننا زيادة نصيبهم من تلك الأعمال، فيناط بهم أداء مهمات خطيرة يقومون بها من غير مراقبة ، وبأكبر مقدار من الدقة .

وليكن تعويد الطفل الاهتمام بنظافته الشخصية وترتيب مواعيده وحسن هندامه مرتبطا بدافع من غريزة حب الظهور وحفظ المكانة بين الأنداد واكتساب احترام الآخرين .

وإذا ألقينا أوامرنا على أطفالنا بأسلوب العطف والرجاء واللطف ، وأحطناهم بالعناية بتنظيم الأعمال التى نود منهم تأديتها ، فإنهم يذعنون إلينا فى الحال رغبة فى إرضائنا ، وحباً فى كسب ثقتنا بهم .

وهم بهذه الطريقة يطيعون عن طيب خاطر ، بعكس وسائل النهى والتحكم والاستبداد بميولهم التى قد ترغمهم على الطاعة فعلا ، ولكن بشىء من التبرم وبدون تحمس للواجب ، حتى إذا ما وجدوا فرصة للتقصير فعلوا ذلك من غير وجل . هذا فضلا عما لذلك من نتيجة فى إضعاف إرادة الطفل وإفساد استعداده .

وهناك التنافس الذى يمكن إثارته مع مراعاة الرفق والحكمة لنؤسس عليه الطاعة والدقة والعادات الصحية المختلفة ، فيجتهد الطفل أن يقوم بعمله على طريقة أحسن وأدق وأسرع من الأول. ويجب إزاء هذا التنافس تقدير المجهود الذى يبذله الطفل فيه والحكم عليه بمبلغ تقدمه فى الإتقان لا بالنتيجة الفعلية ، لأن هذا يشجعه على المضى فى التحسين .

أما دقة التنفيذ ودقة التعبير وملاحظة دقائق الأمور فلا يتعودها الطفل

قائمة بذاتها ، بل يجب أن يراعيها فى جميع أعماله . ولجعل العمل الذى نكلف به الطفل شائقاً ، يحسن ان نخلع عليه غرضاً يكسبه لديه قيمة وأهمية ، فيرتاح فى السعى إلى إكماله ، وتوصيله إلى الغاية المقصودة .

وفى الأعمال اليدوية والرسم واللعب التعليمى أكبر فرصة لتعويد الطفل حسن التنفيذ ، ولتحديد غرض أمامه يتوق إلى إظهار مواهبه فى تحقيقه بحذق ودقة .

ولا يفوتنا أن نذكر ما للقصص الملائمة من الأثر فى نفس الطفل لما فيها من جمال المثل الأعلى للطاعة والدقة والنظام والترتيب والنظافة وغير ذلك من الصفات التى تكسو الشخصيات المحبوبة فيها ، فهذه القصص تستهوى الطفل لأن يتشبه بهؤلاء الأشخاص المحبوبين فتكسبه بذلك عظمة وقوة .

أثر العادة فى الخلق

إن تكوين العادات الحسنة من أهم أغراض التربية الخلقية لأن كثيرا من أعمالنا يقوم عليها .

فقول الصدق والأمانة والإخلاص والعفة عادات فاضلة وأساسية فى خلق الإنسان ، كذلك التقاليد الخاصة بمحيط الطفل والعرف السائد فيه ؛ فكل ذلك قائم على العادات أيضا .

والعرف فى البيئة الاجتماعية بمثابة معاهدة خلقية تربط الطفل بغيره من الأفراد ، فيحترم مبادئهم ، ويرسخ فى نفسه أن من كرامة الانتساب اليهم ، الذود عن تقاليدهم ، وعدم الخروج على مبادئها . وإن لهذا فى بناء أخلاقه أثرا كبيرا .

والعادة متى تكونت تصبح آلية غير مصحوبة بكثير من التفكير والوجدان . وهى لا تكفى وحدها لتكوين الخلق القويم ، بل يجب أن تكون

مقرونة بسرعة الخاطر ودقة الشعور وقوة الإرادة . والعادات فى جميع الأحوال يجب ألا تسيطر على المرء أبدا ؛ وإلا فإنها تجمح بصاحبها وتخضع إرادته لنفوذها فلا يستطيع أن يعدلها أو يبدلها ، ولا يمكن أن يسخرها لظروفه المتغيرة . فالإرادة يجب أن تكون فوق العادة حتى يتحكم بها المرء على عاداته القديمة أو السيئة ، فيكيفها حسب مشيئته ، أو ينزعها إن حادت عن قصد السبيل .

التخلص من العادات السيئة

متى لاحظنا عادات سيئة فى أطفالنا يجب ألا نتوانى فى معالجتها ، ولا سيما فى أول تكوينها .

ويكون ذلك بالبحث عن الباعث لها والعمل لإخماده . وبما أن للإرادة الشأن الأول فى التخلص من العادات الرديئة كما سبق التنويه بذلك ، إذ أن الخطوة الأولى فى هذا السبيل هى العزيمة القوية ، فقد يكون الأمر شاقا فى بدايته . ولكن مع ترويض عزم الطفل وتدريبه على الإقلاع عن تلك العادات يسهل عليه إهمالها بالتدريج . وهنا يجب أن يكون تصميمه نهائيا باتا فى نبذها . وعلى المربى ألا يلين مع الطفل قطعيا فى العدول عن عزمه ، أو السماح له بالرجوع إلى عاداته القديمة ، أو الإتيان بأى عمل يناقض ما أبرمه من قبل ؛ لأن ذلك مما يقوض إرادته ويضعفها أمام الباعث الخبيث . ويتحتم دائما تكوين عادات جديدة صالحة فى مكان العادات القديمة ، فنوجد للطفل بواعث مستجدة ، وظروفا صالحة تنسيه العمل القديم وتنوده عنه ، وتغرس فى نفسه ميلا صادقا إلى العمل الطيب ، فينزع إليه حتى يتمكن منه ؛ وهو بذلك يخلع الرداء القديم البالى من العادات ، ويرتدى منها أنفس الثياب وأغلى الديباج .

وبقدر قوة الباعث الجديد ، وميل الطفل إليه ، ومثابرته على التروض على

ما يدفع إليه من أعمال ، يكون تغلبه على العادة القديمة وقهر باعثها ، وسهولة تكوينه عادة أفضل تحل محل العادة القديمة المكروهة .

فالطفل الصغير إذا تعود الخوف من بقائه فى مكان معين من مسكنه مثلا ، نستطيع مساعدته لكى يتغلب على هذه العادة ، ويستبدل بها عادة الإقدام بإبعاد أى باعث مخيف فى هذا المكان ، وإزالة أى شرك أوقعه فى الخوف منه ؛ ثم استدراجه إلى المكان رويدا بترك أشياء من الحلوى أو اللعب التى يميل إليها ويطلبها منا ، فنرسله لأخذها من هناك حتى ينشغل فكره بها عن الآثار المخيفة ، ويندفع إلى المكان وهمه محصور فى الحصول على ضالته . وهكذا يتعود عدم المبالاة بمخاوفه ، وتغرس فيه الثقة بما يحيط به ، ويتعود الشجاعة والإقدام بدل الجبن والإحجام .

وإن المربى الذى يلجأ إلى الضرب والتأنيب والعقاب المؤلم لمحاربة العادات السيئة فى أطفاله ، لا يجنى إلا فساد علاقته بهم ، ونفور عواطفهم منه ، فلا ينسون إساءته إليهم بسهولة . وإن ما يبديه من قسوة ليبقى فى أذهانهم ، ولا تمحى آثاره من نفوسهم ، فيتعودون معاملة غيرهم بمثل ما ألفوا من معاملة ذلك المربى القاسى .

ومن أين يأتى لأمثال هؤلاء الأطفال بواعث رقة الطبع والصبر ولين الجانب والعطف إذا لم يرأف بهم آباؤهم حين تزل أقدامهم ، ويخطئ الأمور تقديرهم ، وأولى ثم أولى لهؤلاء الآباء أن يمارسوا هناءة أطفالهم بحزم نافذ وبصيرة نقادة ليكملوا النقص ، ويرتقوا الفتق ، ويرأبوا الصدع . غير أن هناك مواقف يكون فيها العقاب دافعاً للطفل لأن يضاعف مجهوداته للتخلص من عاداته الرديئة . فإذا كان دائم الميل إلى لمس علب الكبريت مثلا ونهته أمه عن ذلك وجب أن يكون النهى بلطف أولا ، مبنياً على أسباب يفهمها الطفل ، مع إمداده بلعبة أو كتاب أو بشىء نافع يقوم مقام علبة الكبريت .

سوء التعود

فإذا لم يصغ الطفل لقولها ، فلتكرر نهيه بالشدة التى يخالطها العطف ، ثم تتركه وشأنه حتى يثوب من نفسه إلى طاعتها ، لأنها إن واصلت النهى فقد تفتر قيمته أو يؤدى بالطفل إلى العناد . فإن فشلت ولم يرتدع ، فلتلجأ العقاب . وهنا يجب أن تحذر الأم اتخاذ العقاب لذاته ، بل يجدر أن تفهم أنه ليس إلا وسيلة لتقوية عزيمة الطفل وتعويده عدم التهاون فى إرضائها . ويكون العقاب بحرمانه من أشياء كمالية فى حياته ، أو بإهماله إلى حين على شرط ألا يسوق ذلك إلى الضرر بصحته أو فقد رجائه من التحسن . يجب أن يؤدى العقاب إذن إلى الإصلاح والنفع ، وأن يتلو الخطأ مباشرة بعد وقوعه ، حتى يستأصله فى حينه . ومن الخطأ أن يساوم المربى طفله على الطاعة بشىء من المال أو المكافآت المادية الأخرى ، لأن هذا ينشئه على المطامع الباطلة . ولكن كما أن النجاح يعقب الجد والعمل ، كذلك يمكن استخدام الثواب نتيجة حسنة للعادات الفاضلة . وهنا تفضل أنواع الثواب التى تمكن الطفل من التمتع بمزايا معينة كالتنويه بمسلكه بالإعجاب والثناء ، وخصه بقبلة أو ابتسامة أو بإسباغ لقب محبوب عليه . وينبغى الحذر فى توقيع العقاب أو الثواب فلا نشعر الأطفال بالجور أو التحيز أو المحاباة . فقد يتبادر إلى ذهن طفل مثلا أن أمه تحب أخاه أكثر منه فتنيله ثواباً أعظم ، أو أنها تعاقبه لأنها تمقته ولا تميل إليه ، فتتولد فى قلبه البغضاء ، ويشق بذلك الغراس الخبيث .

هذا ويجب أن يكون العقاب أو الثواب متفقاً ونفسية الطفل حسب إحساسه وميوله ، ومجانساً للغرض الذى وُقّع من أجله حتى تتحقق أغراضه ؛ كما ينبغى أن يقتنع الطفل بعدالته .

الانفعالات والعواطف وتهذيبها

الانفعال هو حالة من الشعور الفطرى تلم بالنفس ، ومثله الخوف أو الغضب أو السرور . وهو فى أبسط أنواعه مرتبط بالغرائز المختلفة ، إذ أنه ينتج عن الباعث الإدراكى لها ، ويسبق الرغبة فى العمل الصادر عن الغريزة؛ بل إنه المظهر الثابت لها والمميز بين بعضها عن بعض . فالخوف والعجب مثلا يميزان بين غريزتى الهرب وحب الاستطلاع .

وللانفعالات أثر ظاهر فى سلوك الإنسان وتصرفاته ، إذ أنها عند ما تعترى شخصا ما ، تولد فيه قوة محركة عظيمة ، ونشاطا دافعا للعمل بطريقة معينة حسب الغريزة الخاصة بها . فالمرء إذا خاف غامر فى الإقدام على الهرب من المؤثرات المخيفة بالقفز لعلو مرتفع ، أو الجرى بسرعة مدهشة لا يستطيعها لو كان فى حالة هدوء واطمئنان . وعلى العكس من ذلك قد يشل الانفعال صاحبه فيعجز عن بذل أى مجهود جسمى أو عقلى . فالخائف مثلا قد يجمد فى مكانه لا حراك به ، وقد تقف ذاكرته ، ويقعده تفكيره عن التصرف لتلافى الخطر الذى يحدق به . كذلك الحياء متى استولى على إنسان جعله ينكمش فى وحدة منعزلا عن غيره من الناس .

ولجميع الانفعالات أعراض خاصة تنم عنها فى المنفعل . فالغضبان يخفق قلبه ، ويحمر وجهه ، وقد ترتعد فرائصه ، ويندفع إلى العمل بدون روية أو مبالاة . ويستمر الانفعال ما بقى الباعث الذى أثاره ، فإذا ما زال الباعث ، زال فى الغالب الانفعال . وإن كان الانفعال عنيفا فإنه يضر بأعصاب المرء ويزعجها ، وينهك جسمه ويرهق عقله . ولذا فلا يؤمن جانبه فى حسن التمييز وموازنة الأمور . فمتى كان الإنسان مسخرا بقوة انفعاله فإنه لا يستطيع إصالة الرأى وصواب التعليل والتفكير . وقد تشتد قوة الانفعال فى نفسه ، فتخرجه

عن حد الاعتدال فى مسلكه ، ويبنى تصرفاته على غير فطنة أو سبب معقول . وليس ذلك فحسب ، بل قد يدفع الانفعال الإنسان إلى ناحية الشر فى العمل ويسلبه نزعة الخير . فالزهو مثلا قد يؤدى الى الغرور والخيلاء ؛ والغضب قد يسبب القسوة ويسوق إلى الهجو والسب . لهذا كان تهذيب الانفعالات من أول العوامل لتكوين الخلق القويم ورفع المستوى الأدبى لأعمال الإنسان . ويرمى تهذيب الانفعالات إلى الأغراض الآتية : —

(١) تحويلها إلى دوافع أساسية تحفز إلى الأعمال الصالحة وتعمل لتكوين العادات الحسنة والصفات الفاضلة . فالغضب مثلا يمكن تحويله إلى الثورة من أجل الحق ؛ والعجب قد يشجع على حسن الاهتمام بشئون غيرنا من الناس ؛ والخوف قد يؤدى إلى رهبة الخالق وإجلاله عز وجل .

(٢) ضبط جماحها وتخفيف حدتها حتى تسيطر الإرادة والتفكير عليها . فمتى كان الإنسان أكثر تحكما فى انفعالاته ومشاعره ، قامت تصرفاته على أساس من الحكمة والتبصر . فالغضب مثلا يجب ألا يتسع مداه إلى درجة العنف فى المغالبة والتطرف فى الدفاع عن النفس ، بل ينبغى إيقافه عند حد التفاهم على إقساط الحقوق بالعدل بيننا وبين معاشرينا .

(٣) تنظيمها لتكوين العواطف السامية النبيلة ، ويشمل هذا التنظيم توثيق علاقاتها بعضها ببعض ، وتوجيه نشاطها حول مدار معين للجهاد الخلقى ؛ وهذه هى الغاية العليا لتهذيب الانفعالات . فهى متى تحولت إلى عواطف أصبحت قوى فعالة للخير ، وتبعا لأعمال المروءة وحسن الصنيعة ؛ فالشفقة مثلا تثيرها محبة الحيوان والأطفال ، والخوف عليهم من إصابتهم بأذى ، والدفاع عن سلامتهم ، والغبطة بتعهدهم وتغذيتهم وإراحتهم وإبداء مظاهر الحنو عليهم ، وتهدئة خواطرهم ، والتأنى معهم ، واحتمال ضعفهم ، والتسامح فى غلطاتهم .

ومن ثم يمكننا أن نعرف العاطفة : فهى جملة انفعالات متجمعة حول موضوع واحد . وتنشأ فى نفس الطفل بعد تقدمه فى النمو ، إذ يكتسبها عن طريق الخبرة والتبصر . وأثرها رابض فى ذهنه غير زائغ ، وهى على أنواع منها عواطف المحبة وعواطف الكراهة .

ويثار فى دائرة عواطف المحبة ، الفرح أو الجذل ، والشعور بجمال الشىء المحبوب ، ومشاركته فى الوجدان والحنو عليه ، وحب الظهور به ، والعتاب كأن تلوم الأم طفلها الذى تحبه عند غضبها عليه لقسوته على الحيوان مثلا والجزع وهو شعور الحنو ممزوجاً بالخوف على الشىء المحبوب ، والشوق وهو الود المقترن بالألم ، والغيرة وهى حب التملك والحنو والغضب معاً .

أما عواطف الكراهة فيثار فى دائرتها الغل أو الاستياء وهو ينشأ من تجمع الغضب والسيطرة ، والحسد ويتكون من الخضوع وحب التملك والغضب.

ويمكن أن نذكر علاوة على النوعين السابقين للعاطفة نوعا آخر يطلق عليه عاطفة اعتبار الذات ، وهى تتكون من تفاعل انفعالى الزهو والخنوع. وتظهر فى احترام الإنسان لنفسه ، أو شعوره بالكبرياء والغرور ، أو الاستكانة والذلة .

وتتنوع العواطف أيضا حسب محور انفعالها والموضوع الذى نوجهه نحوه ، فهى حسية إذا كانت متعلقة بأشياء محسة كالدُّمى والطيور والرفاق والإخوة ، والوالدين والدمى والقطيطات الصغيرة .

وهى معنوية إن كانت تدور حول معنى مجرد ، كعاطفة حب الصدق كعاطفة بغض والكذب .

وعواطف الطفل تكون أول نشأتها حسية ومتعلقة بذاته وحاجاته الشخصية ؛ فهو يتعلق بمرضعه وبالأشخاص الذين يلاعبونه أو يرافقونه عند التنزه . ثم إنها بعد ذلك ترقى وتصبح بالتدريج عواطف معنوية اجتماعية

الرفق بالحيوان

فتاخذه الحمية للأسرة والمجتمع والجنس البشرى بأجمعه . وعند ما تتعدى العواطف دورها المحسوس ، تتجه نحو المثل العليا للصفات الخلقية الفاضلة كحب الشهامة والإيثار والشرف ، وكراهة الكيد والحقد والغل .

والمرمى الذى نقصد إليه من تهذيب العواطف ، هو الوصول بها إلى هذا النوع المعنوى الاجتماعى ، الذى تتغلب فيه نزعات الحب على نزوات البغض . لأن عواطف المحبة أكثر إفادة وأسرع إجداءً من عواطف الكراهة فى السلوك العام . فمتى أحببنا الخير ازدادت فينا الحماسة لتحقيقه ، والرغبة لتنفيذه فى حياتنا العامة . أما كراهة الشر فليست إلا مبدأ نقرره حتى يصرفنا عنه ويدعونا إلى مجانبته فى أعمالنا المختلفة . وقلما تدفعنا تلك الكراهة المجردة إلى المساهمة فى سبيل النفع والمصلحة العامة .

والعواطف أن لم نصرّفها فى نواحى الجهاد والعمل المفيد ، بقيت مشاعر قوية تجيش فى الصدر ، ولكنها لا تثمر فى الإنتاج الخلقى والإصلاح المأمول ، فالفرد منا قد يكون دقيق الحس فياضا بالعواطف الشريفة ، ولكنه متى واجه مجال البر والإحسان تهيّبه ، وقعد عن التعلق بمبادئه وممارستها ، وفاته العمل بها والإقامة على بواعثها الطيبة . ولذلك وجب أن تكون تربية العواطف بالعلم المقترن بالعمل حتى يرسخ أثرها فتصبح مبادىء ثابتة وقواعد صالحة لمسلك الإنسان . وهى كالعادة كلما تكررت بواعثها وكانت سارة مفرحة للنفس ، تمكنت منها ، وتغلبت على التفكير والإرادة . فالسعادة والسرور يبعثان فى الطفل العناية بقطته الصغيرة وإسداء عطفه عليها . ويشجعه الثناء على مداومة الاهتمام بالحيوان الأعجم الضعيف .

وأيضا كلما قويت وجدانية الفرد وحساسيته الطبيعية ، سهل تكوين عواطفه وتهذيبها . فالأطفال وجدانيون بفطرتهم لتمكن الغرائز من نفوسهم وتغلبها على قوتى الفكر والارادة . ولذلك كان من السهل أن نسير بانفعالاتهم

ومظاهر الوجدان فيهم ، فتتخذها أساسا لتكوين العواطف وتنمية الخلق . ومن العوامل التى تساعدنا على هذا ، تزويد الأطفال بالعناصر الصالحة حتى تكون مدارا لعواطفهم المختلفة ، ويكون ذلك بإلقاء القصص التى تطلعهم على طبيعة بلادهم وعلاقتها ببلاد العالم الأخرى ، وعن سكان الأقطار المختلفة وتاريخ الشعوب ونشأتها وأساطيرها وحياة جهابذة الرجال وجهود البشرية بأكملها فى سبيل تعميم الخير والقضاء على عناصر الشر فى العالم — ليأخذوا بإخذهم ، فيبذلوا أنفسهم فى تحسين حال مواطنيهم ، وإسعاد البائسين ، وكف حاجة المعوزين ومؤاساتهم . ومن الممكن حصانة المعلومات التى يلتقطونها من القصص بمرافقتهم لنا فى زيارة المعاهد الخيرية والملاجىء ومؤسسات رعاية الفقراء ، وفى رحلات أخرى متنوّعة ، تقفهم على مناظر واقعية من حياة الوطن وتاريخه وأحواله الاجتماعية ، لنجعل مراكز عواطفهم من نحوه ملموسة ، فتكون أفعل فى نفوسهم لإثارة الرحمة والاحترام والإعجاب وتكوين عواطف الوطنية والإنسانية وحب الخير العام .

ومن القصص ما تمثل العواطف تمثيلا يناسب عقول الأطفال ويظهر عواقب أعمالها فى صور مشوّقة تبين سعادة النفوس ذات العواطف الطيبة ، وشقاء النفوس ذات العواطف الشريرة ، فتجعلهم يريدون الأولى ويهوونها ، ويمقتون الثانية وينفرون منها .

وإذا عنينا بتجميل البيئة التى يعيش فيها الطفل ، لتبهج مشاعره وتبعث فى نفسه الانشراح والسرور ، فإننا ننعش فيه عاطفة حب الجمال .

فالبيئة المكانية بما فيها من مناظر جميلة وأشكال وألوان وشذى أريج ، تتسلط على وجدانه وتهذبه . وعندما يشاهد الطفل معيشة الكائنات ، ويلاحظ ملاءمة تركيبها للوظائف التى تؤديها فى حياتها ، فإنه ينظر إليها بعين رءوفة فيعجب بها ويحنو عليها ، وتستلب قلبه وعنايته ، ثم تطبع فى نفسه صورة جميلة

لتوافق مظاهر الطبيعة ، فيأخذه العطف على بناتها من أزهار وطيور وأشجار كان يقتطفها من قبل ويتلفها ويعاملها بقسوة بدافع من غريزة الهدم والتخريب ؛ إذ يسببه العطف على كل ذلك ، فيضن به أن يتلف أو يعامل بقسوة .

وإنه ليشعر بلذة الفن الجميل أيضا فى ترتيب مسكنه المهيا لمعيشته مع أسرته . وحينما ينعم النظر فى تنسيق مشاهد هذا العالم ، ويرى فصائل النبات وقطعان الحيوان راتعة معه فى الحياة جنباً لجنب ، وحينما يتأمل كيف يتغلب بعضها على بعض ، وكيف يتغلب الإنسان عليها جميعاً يستطيع أن يدرك أعمال البشر وقدرتهم على إصلاح أحوالهم وتحسين معيشتهم فى الأرض ، فتنمو فيه روح الأخوة وحب التعاون . وهذا الروح يقوده إلى مسلك من الحكمة البليغة فى مساعدة غيره من الناس وإلى حسن التمييز بين النافع والضار من الأعمال.

وإذا ربطنا عواطف الأطفال بالانفعالات النفسية المفرحة التى يثيرها النغم الموسيقى وألحان الأناشيد والأغانى وإلقاء منتخبات النظم المشير إلى جمال الطبيعة وحياة البشر والتاريخ القومى ، فإن ذلك يقوى حماسته ويخصب وجدانه .

كذلك إذا أمتعنا بصره بمختلف الصور والألوان المنسجمة ، وإذا روحنا عن نفسه بالأنوار الهادئة الجميلة فإن ذلك كله يصور له المعانى تصويراً يوفق بين مشاعره ، ويبعث فيه الطمأنينة والسعادة والهدوء .

ولا يخفى ما للألوان من تأثير على انفعالات الإنسان . فإذا كانت براقة خاطفة أو متنافرة فإنها تهيجه وتقلق شعوره . أما اللون الرائق البهى فانه يشعره بالسعادة والحبور والصفاء .